

٣ - تحوّل أهل مصر والسودان إلى أمة عربية إسلامية

والآن وقد انتهينا من كل هذه النواحي ، يمكن أن نعالج موضوع دخول القبائل العربية ارض السودان وانتشارها في جهاته المختلفة باختصار... ظهر الاسلام في القرن السابع الميلادي ، وفتحت مصر في أيام عمر بن الخطاب ، وتوالى الولاة عليها ، وأخذت القبائل المختلفة تهاجر الى مصر بانتظام واستمرار... وإذا كانت القبائل العربية قد سكنت أول ما سكنت حواف الدلتا ، فانها لم تلبث أن انتشرت في جهات القطر المختلفة ، وامتد توزيعها من الدلتا الى أقصى جنوب الصعيد... وليس من شك في أن الاتجاه الى ما وراء الحدود المصرية الجنوبية كان سياسة مقررة لولاة مصر وحكامها منذ الفتح الاسلامي ؛ لكن كان لا بد من مرور وقت يكفي لتوطيد حكمهم في مصر قبل أن يفكروا في التوسع الى خارج حدودها ، كما أن القبائل نفسها لم تكن بحاجة الى أن تترك مصر في أول الفتح ، إذ كانت سبل الحياة ميسرة لها ، وكان لها بين السكان مركز ممتاز .

ثم مرت السنوات ، ودخلت مصر في العهد المملوكي ، وتغير الموقف بالنسبة للقبائل العربية ؛ فاستقر عدد منها بين سكان مصر الأصليين ، واندجمت جماعات كبيرة في سكان الدلتا والصعيد ، لكن عددا كبيرا من القبائل ظل محتفظا ببداوته ، واستمر يعيش نفس العيشة التي تعودها في بيئته الأصلية ، وفضلت قبائل كثيرة أن تبعد عن قوة سلاطين المماليك المركزة في الشمال ، وأن تتحرك بعيدا عنها في الجنوب ، كما رأى المماليك أن الوقت قد حان لبطش نفوذ الإسلام خارج حدود مصر ، فلم يكن أمامهم إلا الأراضي الواقعة الى الجنوب منهم ، إذ كان الإسلام قد عم شمال افريقيا وامتد نفوذ المسلمين حتى المحيط الأطلسي ، وبهذا التقت وجهة نظر سلاطين المماليك بوجهة نظر القبائل العربية البدوية ، التي كانت رغبته قوية في أن تتم رسالتها بنشر دعوة الإسلام وادخال غير المسلمين في دين الله .

لكن كان هنالك عقبتان في طريق هذا التوسع : أولا هما قبائل البجاء الحامية ، التي رأيناها تسكن الصحراء الى جنوب شرق مصر وإلى شرق السودان ، والثانية مملكة النوبة المسيحية التي كانت قائمة في الجزء الشمالي من السودان . أما البجاء فلم يصمدوا للعرب ، وما لبثوا أن خضعوا لهم ، واختلطوا بهم ، وظهرت فيهم صفات العرب الجثمانية وبعض مميزاتهم الثقافية ، وهي صفات ومميزات برزت على مرور الوقت في جماعات العباددة خاصة ، لكنها قائمة بصورة مخففة في البشاريين والهادندوة وبني عامر والأمارار... وأما المملكة المسيحية في النوبة فقد رأيناها تتفكك تدريجيا أمام ضغط الإسلام وانتشاره الى أن سقطت نهائيا في القرن الرابع عشر للمسيح ، حيث عمت العقيدة

الإسلامية هنالك ، واستقرت قبائل عربية كثيرة في بلاد النوبة نفسها ، واختلطت الجماعات بعضها ببعض اختلاطا كان يغذيه وصول القبائل وسكنائها بين النوبيين عاما بعد عام .

وبسقوط هذه المملكة المسيحية تدخل علاقة مصر بالسودان في دور جديد ، وتختلط الأصول والانساب اختلاطا يصل الى درجة الاندماج ، وتسرى دماء الشمال في دماء سكان الجنوب ، سرينا سريريا لم يكن هنالك ما يوقفه أو يحد من شدته ، ونصبح وإذا العشائر والبطون في السودان متفرعة عن العشائر والبطون التي استقرت في الشمال ، وإذا الأسر السودانية تتصل أنسابها بأولاد عمومها وخطولتها في صعيد مصر بوجه خاص . . ذلك لأن زوال مملكة النوبة المسيحية قضى على العقبة التي كان يمكن أن تعترض الإسلام والقبائل الإسلامية في حركتها نحو الجنوب ، وهي عقبة طارئة لايسندها سند من العوامل الجغرافية ، ولا يساعدها مساعد من العوائق الطبيعية ، فقد رأينا أسباب الاتصال كلها قائمة بين شطرى الوادى منذ فجر التاريخ ، ورأينا أن التداخل والاندماج مما توحى بهما كل مقومات البيئة ، . . وكان أهم الشرايين التي سرى عن طريقها الدم العربى والثقافة الإسلامية الى أجزاء السودان المختلفة هي :

(أ) الطريق الذى كان يتجه جنوبا بشرق من أسوان وكوروسكو ، قاطعا أرض البجاء ، ورباطا بين مصر والأقاليم السودانية المساحلة للبحر الأحمر ، وأهمية هذا الطريق أهمية محدودة إذا هي قيسست بأهمية الطرق الأخرى في (تعريب) السودان ، نظرا لما تميز به أرض البجاء من فقر في المرعى ، وقلة في الماء ، ونظرا لأنها تبعد عن مجرى النيل الذى كان السكان يحاولون أن يقتربوا منه بقدر الامكان .

(ب) الطريق الذى كان يتبع مجرى النهر ، وهذا هو الطريق الطبيعى الذى ربط بين مصر والسودان منذ أقدم الأزمنة ، وإذا كانت بعض القبائل قد آثرت أن تستقر على جوانب النهر ، فان منها ما انتقل غربا بطريق وادى الكاب ونزل الأراضي المحيطة به .

(ج) الطريق الذى كان يبدأ من كورتى ، على طول وادى (مقدم) وعبر الدبة على طول وادى (الملك) الى كردفان ، حيث تتفرع الهجرات في شكل المروحة ، فمنها ما يتحرك الى دارفور وما يتصل بها في الغرب والجنوب ، ومنها ما يسير على جوانب النيل الأبيض وعبر صحراء (بيوضة) وأعلى العطبرة والنيل الأزرق في اتجاه جنوبى شرقى الى حدود الحبشة .

وقد وجدت القبائل في هذه البيئة الجديدة ما ذكرها بيئتها الأولى ، بل لعلها وجدت في غنى مراعيها ما لم تجده في أراضى مصر من مراعى كافية ، وكان انبساط سهول السودان ، وعدم وجود

معارضة تذكر من جانب القلة التي كانت تسكن السودان وقتئذ ، والتحمس لنشر الدعوة الإسلامية مما وسع نفوذ العرب بسرعة ، وأعطى معظم أقاليم السودان ذلك الطابع الذي ربطها بباقي العالم الإسلامي ؛ وجعل سكانها يتجهون إليه ، ويعقدون آمالهم عليه ، ويعتبرون أنفسهم جزءاً لا يتجزأ من أراضيه .

ولكى نفهم انتشار العرب في جهات السودان المختلفة ؛ ونذكر صلة قبائله بالقبائل العربية التي تسكن مصر وتوزع في الدلتا والصعيد ؛ لابد من الإشارة الى أن العرب يتسمون تقسيميا عاما الى مجموعتين رئيسيتين :

الأولى — مجموعة العرب الجنوبيين أو الفيحطانيين ؛ ومن هؤلاء بنو قضاة (بلى ، بنو كلب ، جهينة) وطىء (جذام ، لحم ، الأزد ، الأوس ، الخزرج) الخ .

الثانية — مجموعة العرب الشماليين أو العدنانيين ، ومنهم قيس عيلان وربيعه وكنانة (قريش بنو العباس ، بنو أمية) وسليم وهوازن ... الخ .

ويكفى أن نستعرض هنا تلك القبائل التي لها ما يمثلها الآن بين سكان السودان ، مشيرين إلى سكناها في مصر ثم حركتها الى الجنوب :

١ — بنو جذام : سكنوا شرق الدلتا منذ أيام الفتح الإسلامي لمصر حتى حوالى ١٤٠٠م ، ومن هؤلاء (بنو عقبة) الذين انفصلوا عن بقية الجذاميين ليألفوا بنى دلال في شمال أفريقيا ، ثم هم يظهرون في فترة متأخرة في السودان ، إذ هم يمثلون في جماعات (الكبابيش) الذين يسكنون الإقليم الواقع شمال كردفان .

٢ — بنو طىء : هبطوا مصر بعد الفتح بحوالى قرنين أو ثلاثة قرون ، وسكنوا جهات الدلتا المختلفة حيث لحق بهم عدد كبير من أهليهم ؛ ومن بنى طىء (بعلبة) الذين يمثلون تمثيلا واضحاً جدا بين (البقارة) وهم رعاة الماشية في السودان .

٣ — جهينة : هذه هي أكبر القبائل تمثيلا في السودان ، واليه ينسب أكثر من نصف القبائل العربية فيه ، وعرب جهينة أتوا أصلا من الحجاز ، ودخلوا مصر مع الفتح ، وقد اشتركوا مع غيرهم من العرب في غزو بلاد البجاء في حوالى منتصف القرن التاسع ، وقد انتقلت غالبية جهينة الى الصعيد ، ثم اشتركوا في إسقاط مملكة النوبة المسيحية ؛ وزحفوا على انقاضها الى كردفان ودارفور ، كما تحركوا جنوبا متبعين مجرى النيل وروافده تجاه الحبشة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

٤ — كثانة وقریش : ومن هؤلاء بنو أمية وبنو العباس ، مواطنهم في الجزيرة العربية تهامة والحجاز ، وقد وصلت أعداد كبيرة منهم الى مصر مع الفتح ، وكانوا ممثلين تمثيلا قويا في الصعيد في القرن الخامس عشر الى جانب عرب جهينة. وفي السودان الآن قبائل كثيرة من كثانة يملكون الماشية غالبا ، وأكثر القبائل التي تعيش على جانبي النيل في شمال السودان تنسب الى بنى العباس ، ومن الكتاب من يرى أن عربا من بنى أمية قد عبروا البحر الأحمر ونزلوا مباشرة في أراض السودان في القرن الثامن ، وربما كان (الفنج) صلة هؤلاء ، إذ أن العرف يجري بين (الفنج) بأنهم أمويون منسبون .

٥ — فزارة : كانوا يتزلون حول مكة في الجزيرة العربية ، ثم هاجروا الى مصر في فترات متباعدة ، فمنهم من جاء مع الفتح ، ومنهم من جاء في القرن الحادى عشر مع بنى هلال ، وإلى فزارة ينسب معظم رعاة الإبل في غرب النيل الأبيض .

٦ — ربيعة : وصلت غالبيتهم الى مصر في منتصف القرن التاسع ، وقد اندفعوا بسرعة إلى الجنوب ، وانضموا إلى جهينة في حملاتهم ضد البجاء... وقد استقرت ربيع على حدود النوبة شمال أسوان ، واختلطوا دون شك بالنوبيين ، وإليهم ينسب بنوكنز (الكنوز) الذين يسكنون وادى النيل فيما بين حلفا وأسران . (يحد الفارئ تفاصيل هذا في كتاب البيان والاعراب للقريزى ، وفي كتاب تاريخ العرب في السودان لما كمال يكل) .

فإذا نحن استثنينا تلك الجماعات العربية القليلة التي وصلت إلى السودان رأسا ، عبر البحر الأحمر — سواء أكان ذلك قبل الإسلام أم في زمن التوسع الإسلامى ، أم كانت هجرات حديثة كالتى أوصلت قبائل (الرشيدة) إلى حيث يتزلون الآن في الشمال الشرقى للسودان — فإن "تعريب" السودان في الواقع إنما تم عن طريق مصر ، إذ لا يسجل التاريخ — في أى عهد من عهوده — وصول موجات هامة أو هجرات عنيفة إلى السودان عن طريق غير طريق بحرى النيل من الشمال إلى الجنوب ، وهذه الحقيقة في ذاتها تبين بجلاء كيف يرتبط سكان معظم السودان في تاريخهم الحديث بسكان مصر بروابط دموية قوية ، يمكن أن تتخذ خطوة قوية مشكلة لما رأيناه من ارتباط في الأصول الجنسية القديمة . ولو أن "تعريب" السودان قد تم عن طريق الشرق مثلا ، وكانت القبائل قد جاءت عبر البحر الأحمر وباب المندب ، إذن لكان لتوجيه السودان وعلاقته الاثنوجرافية بمصر قصة أخرى ، تفيد دعاء الانفصال ، الذين لا يمكن أن يجدوا لدعواهم سندا إذا أخذت هذه الحقائق الثابتة في الحسبان .

ويصح أن نشير — قبل أن نتمنى من هذه النقطة من البحث — إلى أنه من المحتمل أن بعض القبائل العربية قد وصلت إلى غرب السودان من شمال أفريقيا ، متبعة الطرق التى كانت تسلكها القوافل وهى تقطع الصحراء الليبية شمالا وجنوبا ، وربما وصل إلى أرض دارفور قبائل

عن هذا الطريق ، وكان لهم أثر في صبغ هذا الإقليم بالصبغة العربية ، فإذا تحقق هذا كان لبعض الأساطير السائدة بين سكان هذه المنطقة عن أصولهم وأنسابهم أساس من الحقيقة ، فالتقاليد السودانية يجمع على ربط سلاطين دارفور بأصل عربي من سلالة بنى العباس ، الذين جاءوا من شمال أفريقيا ، وكانوا قد هاجروا إليها بعد سقوط بغداد ، وقرعوا فيها بعد ذلك إلى جهات أفريقيا المختلفة ... وعامة أهل دارفور يرجعون أنسابهم إلى الهلالين الذين أشتروا في تونس بعد هجرة تلك القبائل إليها ... وأياً كان الأمر فإن ذلك لا يغير من الحقيقة السابقة في شيء ، ولا يشكك في أن "عريب" السودان إنما تم عن طريق هجرات القبائل العربية من الشمال ، متبعة في معظم الأحوال مجرى النيل .

وسيق علينا بعد ذلك أن تؤكد صعوبة تحديد مدى انتشار العرب في أرجاء السودان ، ذلك لأن الدراسة الأنثروبولوجية لسكان هذا الشطر من حوض النيل دراسة ناقصة ، وكل ما يقال عن التمييز بين الجماعات المختلفة إنما يستند غالباً على تلك الصفات الظاهرية التي لا يمكن الاعتماد كثيراً عليها ، وعلى لون البشرة بصفة خاصة ، مع أن هذا المقياس أضعف المقاييس التي يمكن الأخذ بها في دراسة الأجناس . وإذا اتخذ توزيع القبائل العربية أساساً ، فالعرب إذن يسكنون غالبية الجزء الواقع شرق مجرى النيل فيما عدا منطقة البجاء (ولو أن البجاء لم يخلصوا من أثر العرب) من حدود السودان الشمالية حتى جنوب النيل الأزرق ، كما يتوزعون على جاني النهر من الشمال حتى جنوب (جبلين) ، أما في غربي النيل فلهم معظم الأراضي حتى أعالي بحر الغزال ... لكن ماذا في الإقليم الانتقالي إلى أعالى النيل ؟

لقد أشرنا إلى أن الظروف الطبيعية تقتضي التدرج وتستوجب التداخل ، وإذن فما من شك في أن الأثر العربي في الناحية الجنوبية قد وصل بدرجات متفاوتة إلى أرض (النيلوتين) ، كما أنه ليس من شك في أن عملية "التعريب" لهذا الإقليم الذي لم يعرب كله بعد كانت مستمرة ، وكان من المنتظر أن يتم في الجنوب شيء مما تم في الشمال ، ولولا حالة الفوضى التي انتشرت في السودان قبل الفتح المصري في أوائل القرن التاسع عشر ، ولولا تلك السياسة الانجليزية التي تحول بشدة دون وصول المؤثرات العربية إلى الجنوب ، ولو أن هذه السياسة التعسفية قد انتهت ، وتركت الأمور تجري طبيعياً في السودان لموصلت القبائل والجماعات العربية إلى قلب إقليم (النيلوتين) ، ولما اقتلعت العنصرية والثقافية التي تفصل بين أقلية من سكان السودان وبين غالبية سكانه ، وكان في هذا صالح الجنوب قبل حصوله أهل الشمال .. وإن يكون هناك ما يقف في سبيل هجرة الجماعات الشمالية ، إذ أنها ستنتقل إلى بيئات نظامها الاقتصادي يقوم على الرعي وهو نفس النظام الذي يعيش عليه غالبية القبائل الشمالية إلى الآن .

على أنه رغم انتشار الإسلام في السودان ، وتعمير كثير من القبائل العربية لأقاليمه المختلفة ، فقد ظلت شخصيته — حتى الفتح المصري — مفقودة ، ولم يكن هنالك في الواقع اسم واحد

يمكن أن نطلقه على كل أقاليمه ، فنظام العرب نظام قبلى يشجع الانفصالية والانزعال ، ودخول الاسلام فى السودان لم يتم بطريق الفتح المنظم الذى كان يعتمد على سلطة مركزية تفرض قوتها وساطانها على السكان ، وإنما تم على أيدي قبائل مختلفة وفى فترات متعددة ، وكان هم كل قبيلة أو مجموعة من القبائل أن تبسط سلطانها على إقليم معين ، تنفرد به وتعيش فيه ، وما يعنىها بعد هذا أن تتحد مع غيرها من القبائل ، أو تبذل مجهودا مشتركا لتنظيم حكم البلاد .

ومن هنا كان هذا التفكك الذى تميز السودان به حتى أوائل القرن التاسع عشر ، وكانت تلك الإمارات والسلطنات المتعددة ، التى يكفى أن نشير هنا الى أهمها إشارة سريعة ، لتكامل الصورة ولنرى كيف أن السودان مدين فى الواقع — بوجوده كوحدة لها كيان ولها شخصية — الى الفتح المصرى الذى تم على يد عاهل مصر الكبير^(١) :

أولا — مملكة سنار — وكانت تمتد من الشلال الثالث الى أقصى جبال فازوغلى ، ومن سواكن على البحر الأحمر الى النيل الأبيض ، وكانت مملكة سنار مقسمة الى عدة ممالك ومشيخات ، وكان لكل ملك أو شيخ استقلاله ما دام يدفع الجزية المقررة لمالوك سنار ، وقد انقسمت هذه المملكة قسمين ، قسم تابع للفتح هو الذى كان يقع جنوب بلدة (أريجى) قرب المسلمية ، وقسم يقع شمال هذه البلدة تابع لمشيخة قزى الخاضعة لسلطان الفنج .

ثانيا — مشيخة العابدلاب — وهى التى كان مركزها بلدة (قزى) ثم انتقلت الى الحلفاية فعرفت بمشيخة الحلفاية ، وقد امتدت من حجر العسل الى سوبة ، وكان لها السلطة على جميع الأراضى من أريجى الى الشلال الثالث .

ثالثا — الممالك والمشيخات التى خضعت رأسا لمالوك الفنج :

١ — مشيخة خشم البحر : قامت شرق النيل الأزرق بين رنقة والرصيرص ، وكان مركزها (رنقة) ، وقد عرفت ببلاد خشم البحر أو فم البحر لأن بحر النيل لا يصلح منها جنوبا .

٢ — مملكة فازوغلى : قامت جنوب مشيخة خشم البحر ، وامتدت من الرصيرص الى قداسى وكانت عاصمتها (فازوغلى) .

٣ — مشيخة الحمدة : قامت على نهر الدندر ومركزها دبركى .

٤ — مملكة بنى عامر : قامت فى الصحراء الشرقية بين البحر الأحمر وخور بركة شرقا وغربا ، وبين عقيق على البحر الأحمر وبلاد الحبشة شمالا وجنوبا .

٥ — مملكة الحلائقة : نسبة الى قبيلة الحلائقة — وهى من البجاء — ومركزها جبل كسلا على نهر الجاش .

(١) اعتمدنا فى الكلام على مشيخات السودان وسلطانته — قبل الفتح المصرى فى القرن التاسع عشر — على كتاب

تاريخ السودان ، لعوم بك شقير .

رابعا — الممالك والمشيخات التي خضعت للفتح بواسطة العابد لاب :

- ١ — مشيخة الشنابلة : قامت على النيل الأزرق شمال سنار ومركزها المسلمية .
 - ٢ — مملكة الجعليين : قامت شمال مشيخة العابد لاب على انقاض مملكة (مروى) القديمة ، بين حجر العسل والدامر ، وكان مركزها (شندى) ، وكانت مملكة قوية تولاهها ملوك الجعليين ، وكانت شندى قبل الفتح الإسلامى مركزا من أهم مراكز التجارة فى السودان .
 - ٣ — مملكة الميروفاب : شمال مملكة الجعليين ، بين المقرن ووادى السنقيرو ومركزها بربر ، وكان لها ككروطاقية .
 - ٤ — مملكة الرباطاب : امتدت من السنقيرو الى الشاخية فيما وراء أبو حمد ، وكانت تتنازع ككروطاقية مع الميررفاب .
 - ٥ — مشيخة المناصير : امتدت من الشاخية الى الشلال الرابع وكان مركزها السلامة .
 - ٦ — مملكة الشايقية : التي قامت على أطلال مملكة نبتة القديمة ، وقد امتدت أراضيها من الشلال الرابع الى أبى دوم قشابى ، وكان مركزها مروى ، وهى مملكة عربية بحثة ، قام شمالها مملكة الدقار ودنقلة والخذق وارقو ، وكانت كلها ممالك نوبية أو نوبية متأثرة بالعرب . وكانت مملكة ارقوهى أقصى الممالك التي امتد اليها نفوذ الفتح شمالا ، أما البلاد بينها وبين الشلال الأول فقد تولاهما الكُشَاف الأتراك فى سكوت والمحس .
- خامسا — سلطنة دارفور — ويظهر أنها كانت مقسمة قبل وصول العرب اليها الى عدة سلطنات فى جهاتها سلطنة الفور فى جبل مرة ، وقد استمر النفوذ لسلطين الفور حتى ١٨٧٥ ، حين استولت مصر على بلادها وضممتها الى أراضيها فى السودان .
- ولعل من المهم أن نشير الى أن سلطان الفور كان يمتد عند الفتح المصرى فيشمل كردفان ، التي كانت تحكم بحكم يعينون من قبل سلطان دارفور ، وربما كان هذا من الأسباب التي سهلت سقوط كردفان بعد دخول جيش محمد على مدينة الأبيض تحت قيادة محمد الدفتردار عام ١٨٢١ .
- هكذا كان السودان مقسما الى ممالك وسلطناته ، وكانت وحدة سكانه منعدمة ، لا تجمع جهود أهله سلطة مركزية ، ولا تنظم شؤونه حكومة موحدة قوية ، بل كان الأمر أمر مشاحنات وعداء ، وكانت المطامع الشخصية والمنافسات المحلية والمطامع العاجلة هى الطابع الذى يسود كل ربوع السودان فيؤخر تقدمه ، ويعطل استغلاله ، ويشجع فى أقاليمه هذه الفوضى التي كانت الرغبة فى القضاء عليها دافعا من الدوافع التي حفزت مصر الى أن تتجه فى فتوحاتها ناحية الجنوب ، وكان من نتيجة هذا بعث السودان كوحدة تضم — الى جانب تلك الإمارات والشيخات الشمالية — مديريات الجنوب وجماعات أعالي النيل التي تدخل بحكم موقعها وتوجيهها ضمن حدود السودان .